الإله
في كلمة الإخلاص

آية الله الشيخ جعفر السبحاني

الإله في كلمة الإخلاص

آية الله الشيخ جعفر السبحاني

إنّ المسلمين في زيارتهم البيت الحرام يذكرون موقفاً خالداً لنبيهم العظيم صلى الله عليه وآله حيث وقف ذات يوم على صخرة في جبل الصفا منادياً بصوت عال، وقال: «أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم مصدّقيّ؟»

قالوا: بلى، قال: فإني نذير لكم من بين يدي عذاب شديد... ثم دعاهم إلى كلمة التوحيد، وقال:

«قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا»

فاستجاب لدعوته قليل من الناس ورفض الأكثرون، ولكن دعوته انتشرت بفضل الله تعالى في مكة والقبائل المحيطة بها، إلى أن عمّت غالب أرجاء الدنيا.

فعلى المسلمين أن يعيدوا النظر في فهمهم لمعنى كلمة التوحيد.

وهذا المقال يتكفل بتبيين مفهوم الإله، في هذه الكلمة المباركة.

معنى «الإله» في الذكر الحكيم

المشهور أنّ «الله» أصله «إله» فحذفت همزته وأُدخل عليه الألف واللام، فخُصّ بالباري، ولتخصُّصه به قال تعالى: ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَ الأرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.[1]

والمهم هنا، هو تفسير لفظ الإله، وتبيين معناه، وقد فُسّر بوجوه سبعة، إليك بيانها:

١. مشتق من الألوهية التي هي العبادة، فإن التألّه، هو التعبّد. يقال: فلان متألّه، أي متعبِّد، قال رؤبة:

لله درّ الغانيات المُدّهِ[2] لمّا رأين حليي المُموَّهِ

سبّحن واسترجعن من تألّهي

١. مريم: ٦٥.

٢. المُدَّه، جمع مادِه، وهو المادح.

أي من تعبّدي. ويقال: أَلِه الله فلانٌ إلاهةً، كما يقال: عبده عبادة.[٣] فعلى هذا يكون معناه: الّذي يحقّ له العبادة.

٢. مشتق من الوله وهو التحيّر، يقال: أَله يأله إذا تحيّر.

٣. مشتق من قولهم: اَلَهْتُ إلى فلان أي فَزِعتُ إليه، لأن الخلق يألهون إليه، أي يفزعون إليه في حوائجهم.

٤. مشتق من أَلِهتُ إليه أي سكنت إليه، لأن الخلق يسكنون إلى ذكره.

٥. مشتق من لاه أي احتجب. والمعنى أنّه سبحانه المحتجب بالكيفية عن الأوهام، الظاهر بالدلائل والأعلام.[٤]

٦. مشتقّ من أَلِه الفصيل إذا ولع بأمّه. والظاهر أنّه يرجع إلى التفسير الثالث، أي أنّه مشتق من أَلَهَ بمعنى «فزع».

٧. مشتق من «لاه» إذا ارتفع، والله سبحانه وتعالى هو المرتفع عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات.[٥]

والحق أنّه لا صلة لهذه المعاني لما وضع له لفظ «إله» وإنّما هي من لوازم المعنى، لا نفسه ولا جزءه، بل لازماً له، لأنّ من كان إلهاً ـ بالمعنى الّذي نذكره ـ للعالمين، يُعبد وتتّحير العقول في درك كنهه، وتسكن إليه النفس، ويُحتجب عن الأوهام، وإن كان وجوده ظاهراً بالدلائل والبرهان.

ما هو المختار؟

إنّ لفظ الجلالة وما يعادله في عامّة اللغات موضوع لما يتبادر في عامّة الأذهان بصورة إجمالية من كونه مصدر الخلق والكون الّذي يعبّر عنه في لسان

٣. التبيان في تفسير القرآن ١ : ٢٨.

٤. مجمع البيان ١ : ١٩.

٥. تفسير الرازي ١ : ١٥٨ ـ ١٦١.

الحكماء والمتكلمين بواجب الوجود، أو الذات الجامعة لصفات الجمال والجلال، إلى غير ذلك من الكلمات الّتي هي تعبير تفصيلي لما هو المتبادر عند عامّة الشعوب.

ثمّ إنّ الوثنيين اخترعوا لله سبحانه أنداداً وأشباهاً على درجات مختلفة من الكمال والجمال، وتفويض الأُمور إليهم، وإن كانت هي مجرّد أسماء ليس لها من الألوهية شيء سوى الإسم، يقول سبحانه:﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾.[٦]

فإذا حاول العرب أن يشيروا إلى هذه الآلهة المزعومة مع ما لها من درجات ومراتب مختلفة من القرب والبعد عن الله سبحانه يطلقون عليها لفظ الآلهة، وعلى هذا فلفظ الجلالة علم لمصداق كامل لمفهوم الإله، ولكن لفظ الإله موضوع لمعنى كلي يشمله وسائر الآلهة المزعومة الّتي ليست على درجة واحدة من الكمال والجمال؛ فربما يكون إلهاً ولا يكون خالقاً ورازقاً، بل يكفي في كونه معزّاً أو ناصراً أو غافراً للذنوب، أو مفوّضاً له شيء من أفعاله سبحانه.

وليس من البعيد أنّ لفظ (إله) مأخوذ من كلمة (يهوه) و «ادوناي»... يقول مؤلف قاموس الكتاب المقدّس: فالاسم الثاني يدل على علاقة الله مع بني إسرائيل وهو إله تابوت العهد، وإله الرؤيا، والاعلان، وإنّه الفداء.[٧]

والقرآن الكريم إذا أراد أن يشير إلى الفرد المعيّن من الكلّي يستعمل لفظ الجلالة «الله»، وإذا أراد أن يشير إلى المعنى الكلي الشامل لهذا الفرد وغيره، الّذي

٦. النجم: ٢٣.

٧. قاموس الكتاب المقدس: ١٠٧.

له درجات ومراتب يستعمل لفظ «إله» كما يقول سبحانه ـ ناطقاً عن لسان المشركين ـ : ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلهاً واحِداً إنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ﴾.[٨]

ولذلك نرى أنّه في بعض اللغات العالمية يفرّقون بين مفاد لفظ الجلالة، ومفاد «الإله» ويعبّرون عن المعنيين بلفظ واحد إلاّ أنّهم يفرّقون بينهما في الكتابة، فعندما يشيرون إلى «الله» يكتبونها بالشكل التالي: (God)، وعند الإشارة إلى المعنى الكلي لهذا الفرد يكتبونها بالنحو التالي: (god).

هذا هو المدّعى، والدليل عليه بوجوه:

٨. سورة ص: ٥.

الأوّل: مادة اللفظين واحدة

إنّ مادة اللفظين واحدة، فكيف يفترقان في المعنى؟ والدليل على ذلك قولهم: إنّ «الله» مشتق من لفظ «إلاه».

قال سيبويه في تفسير لفظ الجلالة: إنّ أصله «إلاه» على وزن فعال، فحذفت الفاء الّتي هي الهمزة، وجعلت الألف واللام عوضاً لازماً عنها، بدلالة استجازتهم قطع هذه الهمزة الداخلة على لام التعريف في خصوص النداء في نحو قوله: «يا الله اغفرلي»، ولو كانت غير عوض لم تثبت الهمزة في الوصل كما لم تثبت في غير هذا الاسم.[٩]

فإذا كانت المادة واحدة فيكون لفظ الجلالة بالمعنى الموجود في مادته علماً للشخص؛ و من المعلوم أنّ لفظ الجلالة حاك عن الصفات الجلالية والجمالية أو ما أشبه ذلك، فيجب أن تكون مادته حاكية عن هذه المعاني كلها، لا عن معنى المعبود أو غيره من المعاني السبعة فقط.

الثاني: الاحتجاج بعدم وجود إله غير الله

إنّه سبحانه حينما يستدل على التوحيد وأنّه لا إله إلاّ الله فإنّه يستخدم كلمة الإله ويقول:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ﴾.[١٠]

---

٩. لاحظ: مجمع البيان ١ : ١٩.

١٠. القصص: ٧١ ـ ٧٢.

ترى أنّه سبحانه يعدُّ تدبير العالم على نحو يعيش الإنسان فيه عيشاً رغيداً من شؤون الإله، ولذلك يقول: ﴿مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأتِيكُمْ بِضِياءٍ﴾. أو يقول: ﴿مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأتِيكُمْ بِلَيْلٍ﴾ فهذا تصريح بأنّ التصرف في الكون من شؤون الإله، ثم يردّ على المشركين بأنّ التصرف في الكون وإن كان من شؤون الإله إلاّ أنّه لا إله إلاّ الله.

فلو وضعنا «الخالق البارئ» وغيرها ممّا يعدّ تفسيراً للمعنى الإجمالي للإله مكانه، لانسجم معنى الفقرة، بأن يقال: لا خالق ولا بارئ ولامدبّر غير الله، لانسجمت.

وأما لو جعلنا المعبود مكانه، لاختلّت بلاغة الآية، كأن نقول: هل معبود إلاّ الله يأتيكم بالنهار أو بالليل؟ إذ ليس التصرف في الكون على النحو البديع من شؤون المعبود، وما أكثر المعبودين ولكنهم لاينفعون ولايضرون.

وبعبارة أُخرى: إنّ التصرّف في الكون وتنظيم أسباب الحياة من شؤون من بيده الكون ومصير الإنسان، فكأنّه سبحانه يقول: لو اختلّ النظام بأنْ دام النهار أو دام الليل فأيّ إله (من بيده الكون) يأتي بالضياء بعد الليل، أو به بعد النهار، وليس هو إلاّ الله، وأما لو قلنا بأنه بمعنى المعبود يكون المعنى كالتالي: فأي معبود يأتي بالضياء بعد الليل أو العكس؟

ومن المعلوم أنّ التصرف في الكون ليس من شؤون مطلق المعبود، وإنّما هو من شؤون من بيده الكون إيجاداً وتدبيراً؛ فيكون الإله في الآيتين بمعنى المتصرف في الكون والمدبّر، وما يرادفه.

الثالث: الاستدلال على التوحيد بلزوم الفساد عند تعدّد الآلهة

استدل سبحانه على التوحيد في الربوبية بآيات منها:

١ـ قوله تعالى: ﴿لَوْ كانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا﴾.[١١]

فإنّ البرهان على نفي تعدّد الآلهة لا يتم إلاّ إذا فُسّر «الإله» في الآية بالمتصرف المدبّر، أو من بيده أزمّة الأُمور، أو ما يقرب من هذين؛ ولو جعلنا الإله بمعنى المعبود لانتقض البرهان، لبداهة تعدد المعبود في هذا العالم، مع عدم الفساد في النظام الكوني، وقد كانت الحجاز يوم نزول هذه الآية مزدحمة بالآلهة ومركزاً لها، وكان العالم منتظماً، غير فاسد.

وعندئذٍ يجب على من يجعل «الإله» بمعنى المعبود أن يقيّده بلفظ «بالحق» أي لو كان فيهما معبودات ـ بالحق ـ لفسدتا، ولما كان المعبود بالحقّ مدبِّراً و متصرفاً، لزم من تعدّده فساد النظام، وهذا كلّه تكلّف لا مبرّر له، والدليل على ذلك عدم خطوره عند سماعه.

٢ـ قوله سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾.[١٢]

ويتم هذا البرهان أيضاً إذا فسّرنا الإله بما ذكرنا من أنّه كلّيّ ما يطلق عليه لفظ الجلالة؛ وإن شئت قلت: إنّه كناية عن الخالق، أو المدبّر المتصرف، أو من يقوم بأفعاله وشؤونه؛ والمناسب في هذا المقام هو الخالق، ويلزم من تعدّده ما رتّب عليه في الآية من ذهاب كلّ إله بما خلق، واعتلاء بعضهم على بعض.

---

١١. الأنبياء: ٢٢.

١٢. المؤمنون: ٩١.

ولو جعلناه بمعنى المعبود لانتقض البرهان، لأنّه لايلزم من تعدّده أي اختلال في الكون، وأدلّ دليل على ذلك هو المشاهدة، فإنّ في العالم آلهة متعددة، وقد كان في أطراف الكعبة المشرفة ثلاثمائة وستون إلهاً، ولم يقع أيّ فساد واختلال في الكون.

فيلزم على من يفسر (الإله) بالمعبود ارتكاب التكلّف بما ذكرناه في الآية المتقدمة؛ وما ربّما يتصور من غلبة استعمال الإله في المعبود بالحق، فلاحاجة إلى تقديره. مدفوع، باستعماله ـ كثيراً في غيره ـ كقوله: ﴿اَجَعَلَ الآلِهَةَ إلهاً واحِداً﴾.[١٣]

٣ـ قوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إذاً لاَبْتَغَوْا إلى ذِي الْعَرْشِ سَبيلاً﴾.[١٤]

فإنّ ابتغاء السبيل إلى ذي العرش من لوازم تعدّد الخالق، أو المدبّر المتصرف، أو من بيده أزمّة أمور الكون، أو غير ذلك ممّا يرسمه في ذهننا معنى الأُلوهية.

وأمّا تعدد المعبود فلا يلزم ذلك إلاّ بالتكلّف الذي أشرنا إليه فيما سبق.

الرابع: الملازمة بين الألوهية وعدم ورود النار

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها واردُونَ* لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها...﴾.[١٥]

---

١٣. سورة ص: ٥: لاحظ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الّذي وصفه محمّد فؤاد عبدالباقي المصريّ، فقد استعمل في كثير من الآيات في مورد المعبود الباطل، لو سلّمنا وضعه للمعبود. ولذلك قلنا في «مورد المعبود الباطل» لا في معناه.

١٤. الإسراء: ٤٢.

١٥. الأنبياء: ٩٨ ـ ٩٩.

والآية تستدل بورود الأصنام والأوثان في النار على أنّها ليست آلهة، إذ لو كانوا آلهة ما وردوا النار.

والاستدلال إنّما يتم لو فسّرنا الآلهة بما أشرنا إليه، فإنّ خالق العالم أو مدبّره والمتصرّف فيه أو من فوّض إليه أفعال الله، أجلّ من أن يُحكَم عليه بالنار أو أن يكون حصبَ جهنّم.

وهذا بخلاف ما إذا جعلناه بمعنى المعبود، إذ لا ملازمة بين كونها معبودات وعدم كونها حصب جهنم، وعندئذٍ لا يتمّ البرهان، إلاّ إذا قُيد المعبود بقيد أو قيود ترفعه إلى حدّ القداسة المطلقة، وهذا تكلف واضح؛ ولو أمعنت في الآيات التي ورد فيها لفظ الإله والآلهة لقدرت على استظهار ما اخترناه.

الخامس: لزوم اختلال المعنى لو فسر بالمعبود

قوله سبحانه: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾.[١٦]

فلو فسّر الإله في الآية بالمعبود لزم عدم صحة المعنى، إذ المفروض تعدّد المعبود في المجتمع البشري، ولأجل دفع هذا ربما يقيّد الإله هنا بلفظ «الحقّ» أي المعبود الحقّ إله واحد؛ ولو فسّرناه بالمعنى الإجمالي الذي له آثار في الكون من التدبير والتصرّف، وإيصال النفع، ودفع الضرّ على نحو الاستقلال، لصحّ حصر الإله ـ بهذا المعنى ـ في واحد، بلا حاجة إلى تقدير كلمة بيانية محذوفة، إذ من المعلوم أنّه لا إله في الحياة الإنسانية، والمجتمع البشري يتصف بهذه الصفات التي ذكرناها إلاّ الله سبحانه.

١٦. الحج: ٣٤.

ولا نريد أن نقول: إنّ لفظ «الإله» بمعنى الخالق المدبّر المحيي المميت الغافر على وجه التفصيل، إذ لايتبادر من لفظ «الإله» إلاّ المعنى الإجمالي، بل هذه الصفات عناوين تشير إلى المعنى الذي وضع له لفظ الإله؛ ومعلوم أنّ كونَ هذه الصفات عناوين مشيرة إلى ذلك المعنى الإجمالي، غيرُ كونها معنى موضوعاً له اللّفظ المذكور، كما أنّ كونه تعالى ذو سلطة على العالم كله أو سلطة مستقلة غير معتمدة على غيره، وصف نشير إليه بالمعنى الإجمالي الذي نتلقاه من لفظ «الله»، لا أنّه نفس معناه.

السادس: استعمال لفظ الجلالة مكان الآخر

ربّما يستعمل لفظ الجلالة مكان الإله، ويتجرّد عن معنى العلَمية ويبقى فيه معنى الوصفية، فلذلك يصح استعماله مكان الإله، وإليك بعض موارده:

قال سبحانه: ﴿وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ فِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ﴾.[17] فالآية تشير إلى أنّ إله السماء هو إله الأرض، وليس هناك آلهة بحسب الأنواع والأقوام، فالضمير «هو» مبتدأ ولفظ الجلالة خبر، والمعنى هو المتفرد بالإلهيّة في السماوات، فوزانها وزان قوله سبحانه: ﴿وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.[18]

فإنّ اللفظين في الآيتين بمعنى واحد، بمعنى أنّ لفظ الجلالة في الآية الأُولى خرج عن العلَمية وعاد إلى الكلّية والوصفية، ولذلك صحّ جعله مكان الإله في الآية الأُولى، وجيء بنفس لفظ الإله في الآية الثانية.

---

١٧. الأنعام: ٣.

١٨. الزخرف: ٨٤.

السابع: معنى «الإله» في تثليث النصارى

حكى القرآن الكريم عقيدة النصارى في الله سبحانه، وهي ما تُعرف بعقيدة التثليث، وتتلّخص في وجود ثلاثة أقانيم، هي: الأب، والابن، والروح القدس، أي أنّ هناك إلهاً أباً، وإلهاً ابناً، وإلهاً باسم: الروح القدس.

وهذا القول لا يخلو من أمرين: إمّا أن يكون كل واحد من هذه الأقانيم الثلاثة جزءاً تشكّلُ وجوده سبحانه، وعندئذ تُصبح له شخصية واحدة ذات أجزاء، أو أن يكون كُلّ واحد منها ذا شخصية مستقلة؛ وعلى كل تقدير فالجميع عندهم إله، يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ﴾.[19] ثم قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾.[20]

ففي الآية الأُولى يحكي عنهم قولهم أنّ الله هو المسيح بن مريم، فالمسيح عندهم هو الله المتجسد.

وردّ عليهم في نفس الآية بأنّه كيف يصحّ ذلك مع أنّ المسيح لايأمر الناس بعبادته، بل بعبادة غيره، وذلك بقوله: ﴿اُعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ﴾؟

وفي الآية الثانية يحكي سبحانه عنهم اعتقادهم بالآلهة الثلاثة، فكل من الأب والأبن والروح القدس عندهم إله، ويردّ عليهم بأنّه لا إله إلاّ إله واحد.

---

١٩. المائدة: ٧٢.

٢٠. المائدة: ٧٣.

أمّا كيفية الاستدلال على أنّ الإله في هذه الآيات وما يليها ليس بمعنى المعبود أو غيره من المعاني السبعة، بل أريد به ما يُراد من لفظ الجلالة بتجريده عن العلَمية، فواضحة لدى التدبّر، بشرط أن نقف على مغزى الاختلاف بين الموحّد وأهل التثليث، إذ ليس مصب الاختلاف بينهم، وحدة المعبود أو تعدّده، وإنّما هو لازم نزاع آخر يرجع إلى وحدة ذات الواجب أو تعدّدها، فإذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾[٢١]، فلا يريد أنّه معبود واحد ليس له ولد، و إنّما يُريد بساطة ذات الله و وحدتها.

وإذا قالت النصارى إنّ الله ثالث ثلاثة، فمرادهم أنّه ثالث الآلهة وأنّ الواجب جلّ اسمه أو ما يشار إليه بلفظ الجلالة، آلهة ثلاثة، لا إله واحد، فإذا ردّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ إِلهٌ واحِدٌ﴾ يُريد وحدة الذات وبساطتها.

فالإله في كلام كل من الطرفين يشير إلى تلك الذات المقدسة، فيكون مرادفاً للفظ الجلالة، لكن بشرط تجريدها عن العلَمية.

ولو فُسِّر لفظ (الإله) في هذه الموارد بوحدة المعبود أو كثرته، لزم غضّ النظر عما هو موضع النزاع لبّاً عبر قرون.

ومنه يظهر مفاد الإله في الآية التالية، إذ لا محيص من تفسيره بالمعنى المختار الّذي يعبر عنه بواجب الوجود، الخالق، البارئ، إلى غير ذلك من الصفات.

قال سبحانه: ﴿وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ

٢١. النساء: ١٧١.

عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾.[٢٢] وذلك أنّ علماء النصارى يتبنّون التثليث، وينسبونه إلى عيسى بن مريم، وأنّه دعا إلى إلهين آخرين من دون الله، وهما نفسه وأمُّه.

ومن المعلوم أنّ النفي والإثبات يردان على موضوع واحد وهو ادّعاء النصارى أنّ ثمة إلهين وراء الله سبحانه، هما: المسيح وأمّه، وردّ سبحانه على تلك المزعمة بأنّ الإله واحد لا غير.

فعندئذٍ لا يمكن تفسير الإله بمعنى المعبود، إذ الكلام يتعلق بمقام الذات، وأنّه كثير أو واحد، لا بموضع المعبودية.

ونظيرها الآية التالية، قال سبحانه: ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاتَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الأَرْضِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾.[٢٣]

وحصيلة الكلام هو أنّ الاختلاف والنزاع بين أهل التوحيد وأهل الكثرة راجع إلى وحدة ما يشار إليه بلفظ الجلالة أو تعدّده؛ وأنّه هل هو هوية بسيطة واحدة، أو هي مركبة، أو متعددة يعبّر عنها بالإله الأب، والإله الابن، والإله الروح القدس.

فحقيقة النزاع عبارة عن دراسة مسألة غامضة، وهي أنّ جوهر الذات شيء واحد أو هي أشياء؟ فمن السذاجة أن نعبّر عن واقع النزاع بوحدة المعبود وتعدّده، فإذا قيل: الإله الواحد، أو ثالث الآلهة، فلا يُراد عندئذٍ إلاّ ما يُشار إليه

٢٢. المائدة: ١١٦.

٢٣. النساء: ١٧١.

بلفظ الجلالة الّذي تشير إلى الذات المستجمعة لصفات الجمال والجلال، ولكن بقيد تجريده عن العلَمية.

الثامن: وقوع قوله: (لا إله إلاّ هو) تعليلاً لحصر الشؤون

قد وقع قوله:«لا إله إلاّ هو» في الآيات التالية تعليلاً لحصر الرازقية، وربوبية المشرق والمغرب، ومالكية السماوات والأرض في الله سبحانه، ولا يصح كونه علّة للحصر المذكور إلاّ إذا أريد به المعنى الإجمالي الملازم للخالقية والربوبية والمالكية، فعندئذٍ يصلح أن يقع تعليلاً، لما تقدمه من حصر الأُمور المذكورة في الله.

١. ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ﴾.[٢٤]

فصدر الآية ينفي أي خالق غير الله يرزق الناس، وذيلها أعني قوله: ﴿لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ﴾ بمنزلة التعليل له، ولا يصح تعليلاً إلاّ إذا أريد به ذلك المعنى السامي الملازم للشؤون، فكأنّه يقول «إذا لم يكن إله ـ بهذا المعنى ـ فلا خالق يرزق الناس إلاّ الله.

٢. ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾.[٢٥]

إنّ صدر الآية يصفه سبحانه بكونه ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ﴾، أي رب عالم الشهادة، ثم يأتي بقوله: ﴿لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ﴾ تعليلاً لما تقدم، ولا يصح ذلك إلاّ بتفسير الإله بالمعنى السامي الّذي يدل عليه لفظ الجلالة، لكن مجرداً عن العلَمية، فيكون المعنى: إذا لم يكن خالق مدبر و...، إلاّ الله، فهو رب السماوات والأرض و...

---

٢٤. فاطر: ٣.

٢٥. المزمل: ٩.

ثم عطف عليه قول: ﴿فَاتَّخِذْهُ وكِيلاً﴾ لأنّ اتخاذ الوكيل بمعنى إيكال الأُمور إليه من شؤونه سبحانه.

٣. ﴿الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الأرْضِ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ﴾.[٢٦]

وكيفية الاستظهار هو نفس ما تقدم في الآيتين المتقدمتين، فلا يصلح قوله: ﴿لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ﴾ تعليلاً لما سبق إلاّ إذا أريد بالإله المعنى الإجمالي السامي الملازم للخالقية والرازقية والربوبية وغيرها، فإذا كانت هذه الشؤون منحصرة في الله سبحانه، فله ملك السماوات والأرض.

التاسع: مفهوم الإله عند الوثنيين

يظهر من بعض الآيات أنّ الإله عند المشركين عبارة عمن ينصر العَبدَ في الشدائد والملمّات، ويورث لهم عزّاً في الحياة.

قال سبحانه حاكياً عند عقيدتهم: ﴿وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾.[٢٧]

وقال عزّ من قائل: ﴿وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾.[٢٨]

وكانوا يسوّون بين الله والآلهة، يقول سبحانه حاكياً عن قولهم يوم القيامة: ﴿تَاللَّهِ إنْ كُنَّا لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ * إذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾.[٢٩]

---

٢٦. الاعراف: ١٥٨.

٢٧. يس: ٧٤.

٢٨. مريم: ٨١.

٢٩. الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨.

فإذا كانت الآلهة المزعومة عند المشركين هو الناصر في الشدائد وواهب العزة، وفي مستواه سبحانه، فلا يراد بها عند الاطلاق إلاّ ما يراد من لفظ الجلالة مجردة عن العلَمية.

ولذلك يردّ عليهم سبحانه في غير واحد من الآيات بأنّ الآلهة لايملكون من شؤونه سبحانه شيئاً.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ﴾.[٣٠]

والآية تدل على أنّ من شؤون الإله هو الخلق، والاصنام فاقدة له.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾.[٣١]

والآية تدل على أنّ من شؤون الإله هو القدرة والدفاع عن نفسه وعمن يعبده، وآلهتهم تفقد هذه اللوازم والشؤون.

فالآيتان تدلان على أنّه كلما أطلق الإله لا يتبادر منه إلاّ من يملك هذه الشؤون ـ لا مجرد كونه معبوداً ـ ولذلك رد الوحي الإلهي وصفهم أو أصنامهم بالألُوهية، بعدم وجود هذه الشؤون فيها.

انتقال هُبَل إلى مكة

ويوضح مكانة الأوثان عندهم ما نقله ابن هشام في سيرته يقول: أنّ عمرو بن لُحَيّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أُموره، فلما قدم مآبَ في أرض البَلْقاء،

---

٣٠. الفرقان: ٣.

٣١. الأنبياء: ٤٢.

رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام الّتي أراكم تَعبْدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنَسْتمطرها فتُمْطِرَنا، ونَسْتَنْصرها فتَنْصرنا؛ فقال لهم: أفلا تُعْطُوني منها صَنماً، فأسيرَ به إلى أرض العرب، فيعبدوه؟ فأعْطَوْه صَنماً يقال له هُبَل، فقدم به مكَّة، فَنَصَبه، وأمَر الناس بعبادته وتعظيمه.[٣٢]

فإذا كان الإمطار عند الجفاف، والإنصار في الحروب والشدائد من شؤون الإله المزعوم، فيكون المتبادر منه هو نفس ما يتبادر من لفظ الجلالة، مجرداً عن العلَمية.

العاشر: الإله في كلام الإمام علي عليه السلام

وممّا يؤيد ما ذكرناه من عدم الفرق بين الإله، ولفظ الجلالة إلاّ بالكلية والجزئية، كلام الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في نقد كون كلامه سبحانه قديماً، بأنه لو كان كذلك، لكان إلهاً ثانياً؛ وإليك نصّه:

يَقُول لمنْ أرَادَ كونه: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، لا بصورت يُقرع، ولا بنداء يُسمع، وإنّما كلامُه سبحانه فِعل منه أنشَأه وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ كَائِناً، ولَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إلهاً ثَانِياً.[٣٣]

أي لو كان قديماً، لكان واجب الوجود، أو ما يفيد ذلك، ولا معنى لتفسير الإله بالمعبود، أي لكان إلهاً معبوداً ثانياً.

وفي بعض كلماته أيضاً، إشارة إلى ما ذكرنا، حيث قال:

---

٣٢. السيرة النبوية: ٧٧.

٣٣. نهج البلاغة الخطبة ١٨٦.

أَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلهِكَ.[٣٤]

وقال أيضاً: وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذلِكَ بِالإِسْتِعَانَةِ بِإِلهِكَ.[٣٥]

٣٤. نهج البلاغة، قسم الرسائل، رقم ٣١.

٣٥. المصدر نفسه.

حصيلة البحث:

١. ليس للإله إلاّ معنى واحد، وهو نفس ما يفهم من لفظ الجلالة، لكن مجرداً عن العلَمية.

٢. إنّ تفسير الإله بالمعاني السبعة أو الأكثر تفسير باللوازم والآثار للإله، لنفس معناه.

٣. لفظ الإله ليس بمعنى الخالق المدبّر المحيي المميت الغافر، إذ لايتبادر من لفظ الإله إلاّ المعنى البسيط، بل هذه الصفات عناوين تشير إلى المعنى الموضوع له لفظ الإله، ومعلوم أنّ كون هذه الصفات عناوين مشيرة إلى ذلك المعنى البسيط، غير كونها معنى موضوعاً للّفظ المذكور؛ فتدبر.

تصحيح خطأ في الاصطلاح

إنّ لتوحيده سبحانه مراتب:

منها: التوحيد في الخالقية، بمعنى أنّه لا خالق إلاّ هو، يقول سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾.[٣٦]

ومنها: التوحيد في الربوبية، بمعنى أنّه سبحانه مدبّر للكون بعد خلقه له.

إنّ الوثنيين في جزيرة العرب لم يكونوا يعانون من أي انحراف في مسألة التوحيد في الخالقية، وكانوا يعتقدون بأنّه ليس في الكون سوى خالق واحد، بيد أنّ

٣٦. فاطر: ٣.

بعضهم أو أكثرهم كانوا يعانون في توحيد الربوبية، حيث يعتقدون بأنّ الله سبحانه فوّض تدبير بعض أمور الكون إلى الملائكة، والجنّ، والكواكب، والأرواح المقدّسة، إلى غير ذلك، فجاء القرآن يركّز على التوحيد في الربوبية، مضافاً إلى التوحيد في الخالقية، قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ﴾.[٣٧]

وقال عزوجل: ﴿اَللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.[٣٨]

فقوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ إشارة إلى التوحيد في الربوبية، وتدبير الكون بعد ايجاده، وأنّه سبحانه يقوم به فقط.

حتّى أنّه سبحانه استدلّ على التوحيد في الربوبية، بأنّ تعدّد الآلهة يوجب الفساد، وقال: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٣٩]، و مثلها قوله سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.[٤٠]

---

٣٧. يونس: ٣.

٣٨. الرعد: ٢.

٣٩. الأنبياء: ٢٢.

٤٠. المؤمنون: ٩١.

وبذلك أثبت أنّ المدبّر واحد مضافاً إلى وحدة الخالق، هذا من جانب ومن جانب آخر كلّما أُطلق (الرب) يراد به: مَنْ فوّض إليه أمر الشيء من حيث الإصلاح والتدبير والتربية، فيقال: رَبّ الضيعة، لمن عليه إصلاحها ورعايتها؛ ويقال: ربّ الدار، لمن عليه حفظها وتصليح خرابها؛ وقد أطلق يوسف عليه السلام كلمة الرب على عزيز مصر، حيث قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[41]، كما أنّه سبحانه وصف اليهود والنصارى بأنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[42]، وقال عبدالمطّلب لإبرهة «أنا ربّ الإبل وللبيت ربّ».

وهذه الفقرات ترشدنا إلى معنى الرب وأنّه دون الخالق.

إذا علمت ذلك فلنقف على الخطأ في الاصطلاح الّذي وقع فيه ابن عبدالوهاب ومن والاه، حيث فسّر التوحيد في الربوبية بالخالقية، والتوحيد في الإلوهية بمعنى العبادة، فقال في كتاب (تسع رسائل): إذا قيل لك: إين الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية؟ فقل: توحيد الربوبية فعل الرب، مثل الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وإنزال المطر وإنبات النبات وتدبير الأُمور.

وتوحيد الإلهية فعلك أيها العبد مثل الدعاء والخوف والرجاء والاستغاثة، وغير ذلك من أنواع العبادة.[43]

---

٤١. يوسف: ٢٣.

٤٢. التوبة: ٣١.

٤٣. تسع رسائل، الرسالة الخامسة: ٤١. طبعة القاهرة.

ترى أنّه فسّر الربوبية بالخالقية، ولكنّه عطف عليها ما هو داخل في الربوبية؛ كما أنّه فسّر الإلهية بالعبادة، وقد علمت أنّ الإله وما يشتق منه يراد منه معنى سامٍ له مصاديق مختلفة يجمعها كلّها (إله).

فعلى ما ذكرنا في وضع الاصطلاح التعبير بالخالقية مكان الربوبية، والتوحيد بالعبادة مكان الإلهية.

تمّت الرسالة ظهيرة يوم الخامس والعشرين،
من شهر رمضان المبارك من شهور عام ١٤٣١هـ
والحمد لله الّذي بنعمته تتم الصالحات